رُوز

بقلم الأديب يوسف فهمي

كان اسمها روز . وعجيب أن تسمى رُوز ابنة البادية؛ وأعجب من هذا أن أهلها كانوا يجهلون معنى هذا الاسم وقت ميلادها . فهم أصدقاء الطبيعة الساذجة يعرفون للزهور أسماءها وللأعشاب أنواعها؛ ولم تكن إلى ذلك الوقت قد آذت حاسة سمعهم تلك الكلمات الأعجمية التي يستعملها في عربيتهم غير الناطقين بالضاد . فكانوا يعرفون أن ملكة الزهور هي الوردة ، وكانوا يجهلون تماماً أن كلمة « روز » هي اسم هذه الزهرة العطرية عند الفرنجة

ولكن هي الحرب العالمية التي تغلغل أثرها إلى نفوس أهل الدعة والسكينة ، عشاق الجمال الخالص من كل تصنع ، رفقاء الشمس في بكورها وأصيلها وشفقها ، والقمر في هلاله وبدره

نعم هي الحرب الضروس التي قضت ظروفها السيئة أن يطأ بنو التاميز أرض مريوط حاملين إليها سموم مدنيتهم ومدنيات أتباعهم ، أولئك النفر من مرتزقة الأمم الغربية الأخرى الذين كانوا يلازمون الجيوش في تنقلاتهم ليغنموا من بيع سلعهم أكبر الفائدة

وهكذا أراد القدر أن يعسكر البريطان بالعامرية وأن تتخذ أسرة بسكوالي الايطالية المرتزقة مسكنها بالكنجي بجانب خيمة أسرة مدكور العربية الخالصة

ولم يكن الدهر وقتئذ لآل مدكور عبوساً ، فالسحب في كل عام ممطرة ، والشعير وفير ، والشاء والنياق منتجة غزيرة ألبانها ، والحياة رغدة مغدقة يزيد في هنائها صفاء السماء في الصيف وجفاف الجو في الشتاء

وكانت « مَنْبِيَّة » إحدى زوجات مدكور الأربع على وشك الوضع حين شيدت أسرة بسكوالي بجانب خيمتها أول منزل أقيم في تلك الجهة ؛ فلما وضعت منبية طفلتها أوحت إليها امرأة بسكوالي أن تدعوها « روز » فقبلت ، وكان الاسم أول طغيان للمدنية الظالمة على قدسية مابثته الطبيعة بيدها الطاهرة

وجاءت « روز » آية في الجمال تجمع كل ما في معنى الوردة من حسن وبهاء ؛ فالوجه لطيف الملامح وسيم ، والجسم متسق الأعضاء غض ، والبشرة بيضاء نضيرة

وذهبت الأيام بآثار الحرب المشئومة إلا ما أوغلت من مدنية في بقاع مريوط الشاسعة وتركت من تعاليم الحضارة الفاسدة في نفوس سكانها

فالخيام الآن مضروبة في نقطة الكنجي حول مساكن من الخرسانة المسلحة خططت أبدع تخطيط تحفها الفرندات وتحيط بها الحدائق التي تروى بما تنزحه أحدث المحركات الزيتية والهوائية من مياه الآبار

وكأن تلك الخيام وهي قائمة حول هذه المساكن التي تموج بضوضاء السرعة الآلية ومرح أهل الحضارة المتكلف الممزوج بكثير من الرياء

والاستهتار تنكس هامتها ذلا وخنوعاً بعد أن كانت في فضاء الله الحر عالية الرأس عزيزة الجانب

ولقد شاء نحس الطالع أن تمعن هذه الخيام في ذلها وأن يخضع ساكنوها لسلطان المدنية القاهر تحت ضغط الفاقة ، فالسحب نادرة القطر منذ خمس سنوات،وما أشقى أهل البادية إذا شح القطر وحرمت حياضهم من ري الديم المحسنة

ولم ينج مذكور على رغم سعة العيش التي كان يتمتع بها من مخالب البؤس . فلا شعير يكدس حول خيامه ، ولا أعشاب تكسو التلال البعيدة فتشبع قطعانه . وتوالت عليه النكبات عامين متواليين فقتله الحزن وأودى تاركاً من ورائه نسوة لا عائل لهن ، وعدداً كبيراً من الذرية لا يجدون من القوت إلا الكفاف

وآل إلى مَنْبيَّة وأولادها مما تبقى من مال زوجها شاة وناقة وجمل وما بخيمتها من متاع قليل

ولم تشأ أسرة بسكوالي — وقد احتمت في جوار هذه الخيمة إذ كان العز يرفرف فوقها — أن تتخلى عن حمايتها في أيام محنتها فجعل ربها من مَنْبيَّة حارسة لمصيفه وما حوله من أراض أورق شجرها وطاب ثمرها أثناء إقامته بالأسكندرية ، وخادماً تقوم بنظافة المنزل وتعاون ربته في الطهي أثناء راحته بمريوط

وكانت روز تعاون أمها في كل هذه الأمور ، فإذا لجأت أسرة بسكوالي إلى مصيفها في يومي السبت والأحد من كل أسبوع كعادتها أخذت في تنظيف الحجر وإعداد الأسرة وغسل أدوات الطبخ وحمل الماء العذب من صهريج المحطة وإعداد المائدة في أوقات تناول الطعام

فإذا انتهى أفراد الأسرة وضيوفهم من تناول الطعام وأفرغوا من زجاجات الخمر المعتقة ما أفرغوا أمر بسكوالي وهو في نشوته ومرحه أن تعطي فضلات الوليمة إلى مَنْبيَّة فتتلقاها المسكينة فرحة وتحملها إلى أولادها وهي تحمد الله أن مَنَّ عليهم بقوت يومهم في سعة

وكثيراً ما كانت « روز » تحجم عن مشاركة إخوتها في تناول تلك الفضلات وكانت أمها تعرف سبب إحجامها — فبسكوالي الشاب أكثر عطفاً عليها من أبيه على « مَنْبيَّة » فهو لا يرضى أن يراها تأكل من فضلات طعامه ، وقد شاركته اللعب طفلاً وشاطرته المرح والابتهاج بمناظر الطبيعة مراهقاً ، وهي لا تألو جهداً في إرضائه وخدمته ، وقد صار شاباً ترهف من عواطفه الرعاية والزلفى

فإذا ما جلس إلى المائدة ورأى في حديث المجتمعين حولها ما يشغلهم عنه ، اختلس اللحظة ونهض إلى حجرة الطبخ ليتحف رفيقة طفولته بنصيب من لذيذ الطعام فتأخذه شاكرة وتنتحي ناحية وراء المنزل لتلتهمه بشغف بعيدة عن أعين الرقباء

ولم يكن عطف بسكوالي الشاب قصراً على إطعامها قدر استطاعته، بل كان يتعدى ذلك في بعض الأحيان فينقلب حنواً شديداً يتجلى في مظاهر التدليل التي كان يحيطها بها — فكم من مرة مسح على كتفها وهي في معزن تقوم بعملها المنزلي ، وقال لها في لطف جم : « أنت جميلة يا روز ! وحرام أن يضيع هذا الجمال وسط الصحراء »

وكانت روز تصغي إلى هذه الكلمات العذبة وهي مطأطئة الرأس فتحمر وجنتاها من خفر ، وتمتلىء نفسها عجباً وزهواً — وكيف لا تفهم هذه النفس البريئة الصافية بالخيلاء وها هو ذا ربيب المدنية والجاه ، يردد على مسمعها عبارات الاطراء في لهجة تنم عن صدق وإيمان قويين . هو أدرى بتقدير جمال النساء لأنه يرى من أنواعهن المختلفة في شتى الأزياء ما يجعله دقيق التقدير صادق الحكم . فهي إذن جميلة وجديرة بأن تكون من ربات تلك

القصور التي كثيراً ما وصف لها بسكوالي الشاب داخلها وما تضم من أثاث فاخر وزينة

كان يصور لها تلك القصور تصويراً رائعاً خلاباً فإذا عجزت عن إدراك دقائق التعبير بالنسبة لأحد أجزائها اتخذ من حجرٍ مصيفهم مثلا مصغراً فيقول لها: « أرأيت قاعة الاستقبال وما بها من رياش ؟ إنها لا تذكر بجانب قاعات الاستقبال فى قصور الأغنياء وليس بين نسائهم من تضارعك حسناً ونضارة! »

كل هذه التأثيرات من إطراء ووصف وإغراء كانت تتغلغل رويداً رويداً فى نفسها المطمئنة فتجعلها فريسة الاضطراب ، وتهيج فى قرار عقلها الباطن عوامل الطموح إلى الجاه والرغبة فى المتعة بمظاهر الحياة وحب الوصول إلى مكانة تتفق وما حبتها الطبيعة من جمال ؛ وتحت هذه التأثيرات أصبحت « روز » — وهى ابنة الصحراء القانعة من العيش بالكفاف ، ومن المتاع بأقل من الضروري — ترى فى فضاء مريوط سجناً ضيقاً ، وفى الخيمة التى أبصرت فيها الحياة مأوى حقيراً لا يليق بحسناء مثلها

إلا أن هذا الغرور لم يكن قد استولى بعدُ على كل إرادتها الناشئة ؛ فكانت كلما رجع بسكوالى الشاب إلى المدينة ثابت إلى حقيقة أمرها ، وطردت الأوهام الباطلة من مخيلتها ، فتعود إليها ابتسامتها الحلوة ومرحها الساذج ، وتتاقى « حِمِيْدَه عبدالكريم » خطيبها المدله ببشاشة تزيل من نفسه الكآبة واليأس من حبها

وفى بعض الأحيان كانت تذهب فى النظر إلى الحياة نظرة فلسفية رصينة إلى أبعد من هذا الحد ، فتأخذ فى تأنيب نفسها على طموحها الأهوج ونفورها من حِمِيْدَه كلما أراد التقرب إليها ، فتتساءل فى دهشة : « لِمَ أحاول التخلص منه وهو شاب جميل الطلعة طيب القلب غنى ؟ أوَ ليس فى سحر عينيه الواسعتين ، وبشرته النحاسية اللطيفة ، وقامته العالية وقوة ساعديه ما يعادل محاسن شبان الحضر ؟ أوَ لا ألاقى منه عطفاً وحناناً يوازيان عطف بسكوالي وحنانه ؟ أوَ ليس أبوه سيد عشيرة « أولاد على » وعميدها المحترم ؟ فماذا أبغى من الدنيا أكثر من أن أكون له زوجة ؟ » وفى الواقع كل هذه الصفات وهذه المميزات تجتمع فى حِمِيْدَه عبد الكريم ؛ ففيه الجمال البدوي البهيج ، وفى أسرته كرم المحتد والسيادة بين عشائر مريوط العربية

فأبوه الحاج عبد الكريم تحتكم الأسر فى الخصومة إلى سديد رأيه وعدله ، ويلجأ الغريب إلى خيامه فيجد من كرم الضيافة ما يجعله يلهج بفضله . — ورث عن آبائه جنتين يتعاون أبناؤه الثلاثة على ريها من بئر رومانية فتؤتى كل منها محصولها وفيراً : تيناً وزيتوناً وعنباً . وكلما حان وقت قطاف الثمار راح حِمِيْدَه وأخواه يبيعون جزءاً منها فى قرى الكنجى والعامرية والهوارية، وتولى الحاج عبدالكريم بيع الباقى إلى تجار الفاكهة ممن تعودوا شراء غلاته . أما الغنم فيرسلها إلى مراعى البحيرة حتى إذا جاء عيد شم النسيم أو عيد الأضحى ساقها أحد أبنائه إلى الاسكندرية فيربح من ثمنها كثيراً

وكانت أمنيته الملحة أن يرى قبل موته خيمة حِمِيْدَه — ابنه الأصغر — مضروبة الأطناب بجانب خيمتى أخويه يرفرف فوقها الهناء الزوجى بجناحيه . واستغل حِمِيْدَه هذه الرغبة فى نفسه فتعجل الحوادث وجعل أخاه الأكبر يفاتح أباه بما يكن قلبه لروز من الود الصادق ، فوافق على هذا الاختيار ، ولا سيما أن المرحوم مذكور كان من أخلص أصدقائه

ومنذ ذلك الحين أخذ حِمِيْدَه يهيىء الظروف المناسبة لعقد الخطبة بقراءة الفاتحة فى حفل من الشهود ، فذهب إلى مَنْبَيَّة ورجاها الموافقة على الزواج من ابنتها فوافقت مغتبطة ؛ وحدد لعقد الخطبة موعداً ضربه فهرولت إلى صديقتها « ناجية »

وطلبت إليها أن ينوب زوجها آدم عن والد روز في الاجتماع لما له من الأفضلية بحق الجوار فقبلت وقبل الزوج شاكراً

وفي عصر اليوم المحدد كانت خيمة منيبة وما جاورها من الخيام في عيد ومرح ، فلبست النساء زينتهن وبدت « روز » بينهن في أجمل ما لديها من الملابس كالوردة الغضة وسط الروض الزاهر ، والتحف الرجال بمشاملهم الحريرية والصوفية وحملوا بندقياتهم وساروا في موكب يحفه الوقار نحو خيام « أولاد علي » يتقدمهم آدم

وكان الحاج عبد الكريم وشيوخ أسرته وأخصاؤه ينتظرونهم عند منتصف الطريق ، فلما اقتربوا منهم أفرغوا بندقياتهم في الهواء لتحيتهم فردوا عليهم التحية بمثلها ، واجتمع الفريقان وكان سلام وكان كلام إلى أن دخلوا الخيمة

ولما استراحوا قليلا وضعت أمامهم أطباق الثريد فأصابوا منها ما اشتهوا ، ثم دارت عليهم كؤوس الشاي فشربوا حتى قلبها الجميع علامة على الاكتفاء . وعندها تربع الحاج عبد الكريم بعد اتكائه ففعل الكل مثله ورفع بالكفين فرفعوا ، وقرئت الفاتحة

وقع كل ذلك في غيبة بسكوالي الشاب ، فلما علم به ثارت ثائرته وصمم على الالتجاء إلى كل سبل الإغراء لمنع هذا الزواج . فاستعمل للوصول إلى غايته كل ما أوتي من ذكاء ودهاء ، وأخيراً أفلح في تنفيذ ما عزم عليه

فما هي إلا أيام قلائل بعد حفلة الخطبة حتى كانت فكرة الفرار قد اختمرت في رأس روز ، وفي ذات ليلة ابتعدت عن خيمتها ولم تعد إليها

اختطفها بسكوالي في سيارته وعهد بها إلى عجوز أفرنجية تؤجر حجراً مفروشة في حي وجيه من أحياء الاسكندرية . فدخلت الحجرة التي أعدت لها وهي وجلة مرتعدة الفرائص نادمة على فعلتها التي أخذت شناعتها تتجلى لها أثناء رحلتها بالسيارة ، ولكن الأمر قد وقع ولم يعد ندمها ليغنيها فتيلا . فقد تركت الصحراء وهي تعلم أن الرجوع إليها مستحيل إذا الموت المؤكد دونه

ولم تأل العجوز جهداً في تهدئة روعها ، فجعلت تساعد بسكوالي في رطانتها المشوهة على تصوير المستقبل أمامها باهرا . ولكن الصدمة كانت قوية في نفسها فلم تع من عباراتهما إلا حديثاً مبهماً مملا . ولما كابدته من إجهاد عقلي شاق ، وعناء جسمي شديد ، رجتهما تركها وحيدة ؛ وما أن أغلقا عليها باب الحجرة حتى ارتمت على سريرها وأجهشت في البكاء ، ثم تغلب عليها النعاس فنامت ، وكان نومها متقطعاً تتخلله الأحلام المزعجة

وفي الصباح الباكر حمل إليها بسكوالي ما ابتاعه لها بالأمس من أحدث الملابس الإفرنجية نمطا . فلبست منها ونظرت إلى نفسها في المرآة فعاودها غرورها وطموحها وابتسمت ، وكانت ابتسامتها أولى علامات الرضا بطورها الجديد في حياة المجون

نعم لقد بدأت « روز » منذ تلك الآونة تبيع نفسها إلى شيطان الهوى فجرها إلى وهدة الدعارة وهي صاغرة مستسلمة

فلم يمض زمن طويل حتى كانت لبسكوالي خليلة تعاقره الخمر ، وتصاحبه إلى أماكن الفسق . وما هي إلا أشهر بعد ذلك حتى نبذها خليلها فراحت ترتمي في أحضان كل فاجر

ودخل اليأس من الحياة قلبها فأدمنت على تناول المخدرات ، وبدل الشقاء من نفسيتها فصارت شرسة فظة ، ومحت الهموم وسموم الخمر أكثر ملامح الجمال من محياها ، فبدت آثار الدمامة عليها واضحة ، ورضيت أن يدعوها طلابها بغير اسمها فأصبحت تدعى « وزة العربية »

ولم يقف بها شقاؤها عند هذا الحد من التعاسة

بل بلغ بها القمة فأوصلها إلى السجن مرات لتلاق بين جدرانه أفظع ما يمكن أن تتحمله المرأة من بؤس

ومضت الايام وذهب الهم بذكائها وطمست السموم البيضاء حافظتها وتصورها ، فأصبحت بلهاء تقطع الشوارع فى ذهول طول النهار، فاذا ما أسدل الليل حجابه قدها أحد السوقة لتقاسمه طعامه الحقير وليهريق فى مقابل ذلك بعض ما أبقت أيام الشؤم فى وجها من ماء الحياء

* * *

واقترب عيد الأضحى فأمر الحاج عبد الكريم ابنه حَمِيْدَهْ أن يذهب إلى الاسكندرية ليبيع غنمه مع أخيه الأكبر ، فدخلها وهو منقبض الصدر رغم شوقه القوى إلى رؤيتها ، فهو وإن كان قد وجد فى زوجه المخلصة بعض العزاء عن حبه الضائع ، وفى صادق ودها بعض السلوة لقلبه المكلوم ، إلا أن شبح « روز » لا يزال يعاوده فيعكر عليه صفو عيشه الآونة بعد الأخرى — وهو وإن كان يحتقر هذه المرأة الفاسدة الخلق التى لم ترع لحبه الطاهر ذمة ولا لشرف أسرتها حرمة ، لا يزال يهواها ، ولا يزال قلبه يخفق عند ذكر اسمها . فكم من ليلة مقمرة هام فيها على وجهه يقطع المسافات الشاسعة مبتعداً عن مضارب الخيام ليخلو لنفسه وليستعيد الذكريات الماضية والأحلام اللذيذة التى كانت تملأ نفسه بحلو الأمانى فيتمثل حبيبة قلبه وكأنها ما برحت تسير إلى جانبه تبادله الغرام وتردد على مسامعه فى لهجة التوكيد عبارات الفرح بمشاركته الحياة ، ثم يثوب إلى رشده فيلعنها ويقفل راجعاً إلى خيمته كئيب النفس كاسف البال

وها هوذا الآن يجوب المدينة التى تضم أرجاؤها هذه المخلوقة التى يمتزج حبها فى قلبه بعاطفتى البغض والازدراء — فكيف إذن لا ينقبض صدره وتستولى الكآبة على نفسه؟ وربما قدر له أن يراها أثناء تجواله وماذا يكون موقفها منه تأثير هذا الموقف الرهيب على شعوره ؟ إنه لحزين مبلبل الوجدان يتمنى لو تبعده الظروف عن لقائها فى قرارة نفسه أن يراها ويتمتع النظر ولو برهة قصيرة ببهيج محياها

وانقضت أيام ثلاثة وهو فريسة لهذه الخواطر المتناقضة تتنازعه رغبتان ملحتان : الفرار من الوقوف أمامها، والبحث عنها. إلى أن كان اليوم الأول من العيد

فبينما هو يجمع العدد القليل الباقى من الغنم فى ناحية من ميدان المحطة لمح امرأة تجلس على مقعد قريب من مقاعد الحديقة وتأتى بحركات غير عادية فتطوح برأسها وتلوح بذراعيها فى الهواء ، ثم تخلع قبعتها البالية عن رأسها وتعيدها بعنف وهى تكيل الشتائم لأناس مجهولين فى لهجة بدوية

وتبين حَمِيْدَهْ فى وضح النهار وجه هذه المتوهة البائسة فى ثيابها الأفرنجية الممزقة فاذا به أمام فاتنته المفقودة ، فعقدت الدهشة لسانه هنيهة ثم صاح متوجعاً :

— روز ! أإلى هذا الحد أوصلك الشقاء ؟

فرفعت روز عينيها الشاردتين وتفرست فى وجهه طويلا ثم طفقت تقهقه قائلة :

— روز ! روز ! لا تدعونى بهذا الاسم البغيض فأنا « وزة العربية »

ثم انقطع ضحكها فجأة ومدت يدها بحركة آلية وقبضت على جرابه الجلدى المزركش بخيوط الفضة وطلبت منه فى تضرع قائلة ! — اسعفنى بنشقة :

— نشقة ماذا ؟ — نشقة كوكايين ...

فلم يقو حَمِيْدَهْ على تحمل المصاب أكثر من ذلك فجرى كالمجنون نحو غنمه وهش عليها بعصاه فى غضب وترك الميدان هارباً

يوسف فرحى

عضو جماعة نشر الثقافة بالاسكندرية